هشام القروي*

مراجعة كتاب

اللّوبي العربيّ: التحالف الخفي الذي يقوّض مصالح أميركا في الشّرق الأوسط

المؤلّف : ميتشال بارد.

اللغـة : الإنجليزيّة.

الطبعة : ٢٠١١.

الناشـر : برودسايد بوكس/هاربر كولينس.

عدد الصفحات: ٤١٢ صفحة من القطع المتوسط.

* باحث في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

يحاول هذا الكتاب أن يكون المقابل والردّ على كتاب جون ميرشيمر وستيفن والت "اللّوبي الإسرائيليّ والسّياسة الخارجيّة الأميركيّة"[١] الذي أحدث عند صدوره ضجّةً كبرى في الأوساط الأكاديميّة والسياسيّة والإعلاميّة المهتمّة بشؤون الشّرق الأوسط خاصّةً، والسياسة الخارجيّة الأميركيّة عامّةً. وقد حرص ميتشال بارد على أن يقدِّم "الحجج المعاكسة" - كما يتصوّر - لحجج مؤلّفي "اللّوبي الإسرائيليّ"، فراكم عشرات الأمثلة والمعطيات التاريخيّة المعروفة على امتداد فترة الصّراع العربيّ - الإسرائيليّ، المرتبطة جميعًا بمحاولات العرب إقناع المجتمع الدوليّ والولايات المتّحدة بوجود ظلمٍ مسلّط على شعب فلسطين، وصنّف تلك المساعي الدبلوماسيّة ضمن "نشاط اللّوبي العربي". لكنّ هذه المساعي العربيّة، لم تصل يومًا إلى ما وصله اللّوبي الإسرائيلي من سطوةٍ على الكونجرس، ولا حتّى اقتربت منه؛ إذ كانت تجري في الغالب بالطرق الدّبلوماسيّة التّقليديّة، مع وزارة الخارجيّة وفي الأمم المتّحدة، وتقع بجهدٍ فرديٍّ لزعماء ودبلوماسيّين عرب بارزين لدى بعض الرّؤساء الأميركيين. ومع ذلك، فإنّ بارد يرى أنّ هذه المساعي الدّبلوماسيّة تشكّل "لوبي عربي"، عند اقترانها بجهد بعض الأثرياء العرب في تمويل عددٍ من مراكز البحوث والباحثين الجامعيين الذين يعملون من أجل التّقارب الأميركي - العربي أو الأميركي - الإسلامي. ويؤكّد أنّه إذا أخذنا بعين الاعتبار حاجة أميركا الشّديدة إلى النّفط، سوف "يتبيَّن" لنا أنّ هناك لوبيًا عربيًا قويًا بقدر ما هو خفيّ يسيطر على السّياسة الأميركيّة ويُفسِدها ويجعلها تعمل ضدّ المصلحة العامّة لشعبها وقيمه الثقافيّة.

يَعدّ بارد نفسه مختصًّا في السّياسة الأميركيّة في الشّرق الأوسط، والحقيقة أنّه اختصاصي في الدفاع عن إسرائيل وحسب. وقد ركّز في كتاباته السابقة على الشّأن الإسرائيليّ، فقد أصدر عددًا من الكتب عن تاريخ إسرائيل، وتاريخ اليهود، والصّراع في منطقة الشّرق الأوسط من منظورٍ صهيونيٍّ[٢]. وعلى المستوى السياسي، يصنّف بارد من الجمهوريّين المحافظين المرتبطين عضويًّا باللّوبي الإسرائيليّ، وعمل في حملة جورج بوش الأب الانتخابيّة. وفي عام ١٩٩٣ أسَّس "المؤسسة التعاونية الأميركيّة- الإسرائيليّة" The American-Israeli Cooperative Enterprise, AICE التي اهتمَّت بالتّرويج لمختلف المنتجات الإسرائيليّة التي يفترض أن "تهمّ الأميركيّين". وعمل لمدّة ثلاث سنواتٍ في أيباك (اللّجنة الأميركيّة- الإسرائيليّة للشؤون العامّة) AIPAC، فقد كان مكلّفًا بتحرير النّشرة الإلكترونية الأسبوعية "تقرير الشّرق الأدنى" Near East Report. وهذا ما يعطي فكرةً موجزةً عن خلفياته وارتباطاته وأهدافه أيضًا.

يقسم بارد كتابه هذا إلى خمسة عشر فصلًا، يُفرد الفصل الأوّل منها للحديث عن "جذور اللّوبي العربيّ: مشكلة فلسطين"، ويخصِّص الفصل الثّاني للحديث عن "حملة اللّوبي العربيّ ضدّ دولةٍ يهوديّة". وعلى الرّغم من أنّه يعترف بهذه الطريقة بالأهميّة المحوريّة للقضيّة الفلسطينيّة في نشاطات مجموعات الضّغط العربيّة والإسلاميّة في الولايات المتحدة، فإنه سيسعى طوال صفحات كتابه إلى دحض هذه الفكرة، محاولًا التّقليل من أهميّة الصّراع العربيّ - الصهيونيّ، مدّعيًا أنّه ليس النّزاع الوحيد في الشّرق الأوسط، لا ينبغي أن يكون مقياس العلاقة بين الولايات المتّحدة والعالم العربيّ والإسلاميّ.

يتمثَّل الهدف الأساسيّ للكاتب في محاولة البرهنة على أنّه خلافًا لما يشاع عن هيمنة لوبي إسرائيلي قويّ على السّياسة الخارجيّة الأميركيّة، فهناك في الحقيقة تأثيرٌ لا يقلّ قوّةً، على الرّغم من عدم بروزه على السطح، يمارسه اللّوبي العربيّ. ويزعم بارد أنّه إذا ما كان تأثير اللّوبي الإسرائيليّ، لا يتناقض البتّة مع المصلحة القوميّة الأميركيّة، لكون الإسرائيليّين والأميركيين "يشتركون في القيم"، فإنّ الأمر عكس ذلك تمامًا مع اللّوبي العربيّ. ويدافع عن هذا الرأي بالقول إنّ اللّوبي العربي منقادٌ للأيديولوجيا والنّفط والسلاح، وهو يسعى إلى الحصول على التّأييد والدّعم لأنظمةٍ تعارض في الغالب القيم والمصالح الأميركيّة. والأدهى والأمرّ من ذلك، في نظر بارد، أنَّ جزءًا من موظّفي وزارة الخارجيّة الأميركيّة الذين يسمّيهم "المستعربين" Arabists، يعملون لصالح اللّوبي العربيّ ويتبنَّون وجهات نظره ويدافعون عنها منذ سنواتٍ طويلةٍ، بل منذ بدأ عمل هذا اللّوبي. وما يسعى الكاتب أيضًا إلى تسليط الضوء عليه في هذا السياق، هو أنَّ النّقاش بشأن المشاكل الحقيقيّة للشرق الأوسط قد "تشوّه"، بسبب الموارد الماليّة الهائلة التي يستخدمها اللّوبي العربيّ.

ويحدِّد بارد اللّوبي العربيّ بأنّه مناهضٌ للّوبي الإسرائيليّ إلى حدٍّ كبيرٍ، وإن لم يكن ذلك هدفه الحصري. فاللّوبي العربيّ يشمل في نظره "متعهّدي الدّفاع، وموظفين حكوميّين سابقين جنَّدتهم الدّول العربيّة لخدمتها، وشركاتٍ لها أعمالٌ ومصالح في الشّرق الأوسط، ومنظماتٍ غير حكومية (خاصةً تلك المعنيّة بحقوق الإنسان)، ومنظّمة الأمم المتّحدة، وأكاديميّين (خصوصًا من أقسام دراسات الشّرق الأوسط)، وكارهي إسرائيل، ونسبة لا بأس بها من وسائل الإعلام والنخبة

1 John J. Mearsheimer and Stephen M. Walt, *The Israel Lobby and U.S. Foreign Policy,* 1st edn. (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2008).

٢ انظر قائمة مؤلّفات ميتشال بارد في "المكتبة اليهوديّة الافتراضيّة"، على هذه الرابط:
http://www.jewishvirtuallibrary.org/jsource/bibbard.html

الثقافيّة، ومجموعاتٍ مسيحيّة من غير الإنجيليّين، والنخب الأوروبيّة، والمرتزقة، والأميركيّين العرب والمسلمين، وزعماء ودبلوماسيي ما لا يقل عن إحدى وعشرين حكومة عربية، (إضافةً إلى عددٍ من البلدان الإسلاميّة غير العربيّة)" (مقدمة الكتاب، ص. ١٥).

إنَّ هذا الخليط العجيب من الأفراد والمجموعات والمؤسَّسات، هو ما يمثِّل في نظر بارد "اللّوبي العربيّ". ولذلك يقول إنَّ عمله غالبًا ما يكون غير منظور، وأنَّ هذا اللّوبي - خلافًا للّوبي الإسرائيليّ - مشتّت تنظيميًّا، ولكنَّ تأثيره مع ذلك ملموس. وهو يحاول أن يرصده ويلتقط آثاره في السّياسة الأميركيّة. ولكنَّ فشله في تحديد اللّوبي بطريقةٍ علميةٍ واضحةٍ منذ البداية، يجعل تحليله كلّه قابلًا للتفنيد والتقويض، لأنَّ أساسه خاطئ. فكيف يمكن أن تكون منظمة الأمم المتّحدة جزءًا من اللّوبي العربيّ أو جزءًا من أيّ مجموعة ضغط، في حين أنَّها المكان الوحيد الذي تجتمع فيه كلُّ دول الأرض، وتدافع كلٌّ منها عن مصالحها وأهدافها؟ فلو تحدَّث عن "جامعة الدّول العربيّة" بوصفها "مجموعة ضغط" أو جزءًا من "اللّوبي العربيّ" لبدا ربما أكثر إقناعًا للذين لا يدقّقون كثيرًا في التفاصيل، لأنَّ التّعريف العلمي الدقيق هو أنَّ هذه منظّمة إقليميّة، ولا يصحّ القول إنّها "لوبي" أو "طرف في لوبي"، فما بالك بمنظمة الأمم المتحدة؟

وهل يمكن تعريف اللّوبي بوصف أحد عناصره أو أطرافه بالقول: "كارهو إسرائيل Israel haters"، أو "المرتزقة hired guns"، أو "النخب الأوروبية European elites"؟ كيف يمكن أن تكون "النخب الأوروبيّة" بيمينها ويسارها ووسطها، جزءًا من "اللّوبي العربيّ" في الولايات المتحدة؟ إنَّ الجواب الذي يقدِّمه بارد هو التالي: "يكفي القول إنَّ الأمم الأوروبيّة تبنَّت منذ وقتٍ طويلٍ رؤًى مشابهةً لرؤى المستعربين [في وزارة الخارجيّة الأميركيّة] معتقدةً أن رفاهيّتها الاقتصاديّة قد تكون في خطر إذا لم تدعم الأجندة السياسيّة للدول العربيّة والفلسطينيّين" (ص ٣٥٧). هل هذا كلام عقلاء؟ جميع الأمم الأوروبيّة جزءٌ من "اللّوبي العربيّ"؟! أليس في أوروبا صهاينة ومتصهينون يستميتون في الدّفاع عن إسرائيل أكثر من بارد نفسه، وبعضهم في الحكم وبعضهم في المعارضة؟

كان ينبغي للكاتب أن يعود أوّلًا إلى التّعريف الصّحيح - القانوني - للّوبي[٣] كما تنصّ عليه التّشريعات الأميركيّة، بحسب التحديدات التي وضعتها "اللّجنة الخاصة بنشاطات مجموعات الضّغط" The Select Committee on Lobbying Activities[٤]. فنشاطات اللّوبي ليست منسيّةً من القانون الأميركي، بل خاضعة لقيوده. وكل لوبي "مطالب بالتسجيل القانوني، وتقديم كشوفاتٍ دوريّةٍ عن حساباته، وإعلان المبالغ التي يصرفها ولأيّ غرض"[٥]. وهذا كلّه يخضع لرقابة عدّة مؤسّسات بحثيّة مستقلّة وحكوميّة، فضلًا عن "اللّجنة الفيدراليّة للانتخابات" Federal Election Commission.

ولكن ميتشال بارد، في سعيه المحموم "لإثبات" أنَّ "اللّوبي العربيّ" هو ما يُفسِد السّياسة الأميركيّة في الشّرق الأوسط، وأنَّه "متنفّذ" أكثر حتى من اللّوبي الإسرائيليّ "بسبب حاجة أميركا إلى النفط"، راح يجمع ما هبّ ودبّ ويقذف به إلى الناس، زاعمًا أنَّ كلَّ هذه المؤسّسات والأشخاص والمجموعات والدّول "تعمل خفيةً" لصالح العرب، لذلك فنشاطها "خفيّ".

وفي هذا السياق، يزعم أنَّ اللّوبي العربيّ يتبنّى قضيّتين أساسيّتين غالبًا ما تتشابكان: الأولى هي تأييد السعوديّة، وقوامها المصالح النّفطيّة، ويمثِّلها - بحسب زعمه - كلٌّ من الحكومة السعوديّة و"المستعربين"، ومتعهّدي الدّفاع، والشّركات التي لها نشاطاتٌ ومصالح في المملكة، والبنتاغون. وإذا كانت مبيعات السلاح للعرب تبرّر بأنَّ الدّفاع عن الحلفاء هو جزءٌ من المصلحة القوميّة الأميركيّة، فإنَّ بارد يرى أنَّ الغاية الحقيقيّة هي تخفيض كلفة الأنظمة التي تريدها القوّات المسلّحة الأميركيّة لنفسها وتمديد حياة خطوط الإنتاج. أمّا القضيّة الثّانية التي يتبناها اللّوبي العربيّ، فهي القضية الفلسطينيّة.

ويبدو هذا الكتاب في الحقيقة من نوع الأدب السياسي المثير للجدل أكثر من كونه بحثًا علميًّا رصينًا يتقيّد بالقواعد المتعارف عليها، من حيث الابتعاد عن الإثارة، والتزام الحياد والموضوعيّة، وفحص الفرضيّات والتحقّق من صحّتها، وتقديم الحجج للإثبات أو النفي، والبناء على ما تقدَّم والاستنتاج انطلاقًا من الاستدلال.

إنَّ بارد يقدِّم العديد من الفرضيّات التي لا تستقيم لدى الفحص، وينتهي إلى نتائج خاطئة ومغرقة في الوهم. فهو يزعم أنَّ اللّوبي العربيّ حكومي في حين أنّ اللّوبي الإسرائيليّ غير حكومي، وإنّما شعبي. والحقيقة أنَّ العديد ممّن يشتغلون مع أيباك ويتعاونون معها

٣ انظر على سبيل المثال:
L. Harmon Zeigler and G. Wayne Peak, *Interest Groups in American Society*, 2nd edn. (Englewood Cliffs- New Jersey: Prentice-Hall Inc., 1972).

٤ هناك حديث بالتفصيل عن نشاط مجموعات الضّغط، وتنظيمها، وإستراتيجيّاتها، وخلفيّتها القانونيّة والسياسيّة، في كتابنا:
Hichem Karoui, *The Bush II Years in the Middle East* (2000-2008): *A Case Study in the Sociology of International Relations* (Charleston: S. C. Create Space, 2012), pp. 21-26, 295-300.

5 Ibid., p. 296.

هم مسـؤولون حكوميّـون حاليّون أو سـابقون، في الولايات المتّحدة وفي إسرائيـل. وإذا طبّقنـا التعريف الدّقيق للّوبي، كما هو مسـجّلٌ في وثائـق الكونغرس الأمـيركي، فإنّ مجموعات الضّغـط التي يكوّنها العـرب الأميركيّون والمسـلمون الأميركيّـون، هي تحديـدًا منظّماتٌ غير حكومية، وهي تمارس نشـاطها بصفتها تلك، وبالطّريقة نفسـها التـي تعمل بها أيباك. الفرق الوحيد أنّ أيباك تتمتّع بسـطوةٍ كبرى، بسبب المبالغ الماليّة الضّخمة التي تجمعها المنظّمات اليهوديّة ولجان العمل السّياسي التي تنضوي تحت لوائها، في حين أنّ منظّمات العرب والمسـلمين الأميركيّين، تقوم أساسًـا على التبرّعات الفرديّة. فلا يجوز منطقيًّا وسياسيًّا وقانونيًّا الحديث عن النّشاط الدبلوماسيّ الذي تبذله بعـض الحكومات العربيّة لدى حكومة الولايات المتّحدة بصفته عملًا يقـوم به "لوبي". وفي هذا السّـياق، كان يفترض التّمييـز أيضًا بين ما تبذلـه مجموعات الضّغـط التّابعة للدّفاع والنّفـط لدى الكونغرس، وهـي جميعًـا أميركيّـة، للدفاع عن مصالحهـا مع البلـدان العربيّة المعنيّـة، وما يبذله العرب كمجموعـة دوليّة للدفاع عن قضاياهم في المحافـل الدوليّة ولدى الحكومة الأميركيّة نفسـها. ولكن بارد لا يميّز بين المجموعتين ولا بين العملين، لأنّه أصلًا لا يريد التّمييز بينهما. فقد كتب كتابه بهـدفٍ واحدٍ، هو إقناع القارئ بأنّ اللّوبي العربيّ "خطير" لأنّـه "يعمـل خفيةً" ويمدُّ أصابعه ليفسـدَ الحياة السياسـيّة والقيم الأميركيّة التي لا تفسـدها إسرائيل. ذلك أنّها لا تفعل شـيئًا يتضارب معهـا. فمصلحة أميركا بحسـب رأيه، هـي في الالتصـاق بإسرائيل، والابتعاد عن العرب (ص ٣٥٣).

عـلاوةً على ذلك، فـإنّ كلامه عـن قوّة "اللّـوبي النّفطـي" و"اللّوبي الدفاعي" لدى العرب لا يسـتقيم عنـد الفحص. كيف ذلك؟ إذا كان هذا اللّوبي "الخفيّ" بالقوّة التي يدّعيها بارد، كيف أمكن أن يسـمح لـلإدارات الأميركيّة المتعاقبة بتجاهل العرب، بـل وتوجيه الصفعات إليهم في مجلس الأمن، مع كل "فيتو" يمنع إدانة إسرائيل أو معاقبتها جماعيًّـا؟ علاوةً عـلى ذلك، فهو يوحي بأنّ العرب يسـيطرون تقريبًا عـلى المجموعـات المصلحيّـة الدفاعيّـة والنّفطيّة، فيـما يتناسى أنّ إسرائيـل - وليـس العرب - لهـا الأفضليّة في كلّ ما يتعلّق بالتسـلّح. وإذا كانت الـشّركات النّفطيّة تعمل حقًّا مع العرب، فلجني الأرباح، ولكنّها على الصّعيد السّياسي ليست بالضرورة مؤيّدةً للقضايا العربيّة. فمجموعـات الضّغـط النّفطية تعمل مع الحزب الجمهوريّ بشـكلٍ تقليديٍّ، كما هو معلوم، وهي التي أيّدت وتؤيّد "صقور" هذا الحزب الذين لم يستمعوا دائمًا إلى أصوات "حلفائهم" أو زبائنهم العرب، قبل خوض الحـروب أو تأجيج النّزاعات. والعديد مـن اليهود المتنفّذين والموالين لإسرائيل يشـغلون مناصب إداريةً مرموقةً في تلك الشركات إذا لم يكونـوا أعضاء في مجالس إدارتها. والعديـد منهم يتنقّلون بين شركاتهم وبين المناصب السّياسـيّة التي تعرض عليهم، على إثر حملة انتخابيّة ناجحة، يساهمون بقسطٍ كبيرٍ في تمويلها.

ومن بين استنتاجات بارد الغريبة أيضًا قوله إنّ منظّمة العفو الدوليّة و"هيومان رايتس ووتش" ومنظّمة الأمم المتّحدة "حليفة للّوبي العربيّ (...) وتمثّـل منـذ زمنٍ طويلٍ منتـدًى أحاديَّ البعـد لترويج القضيّة الفلسـطينيّة والتنديد بإسرائيل" (ص ٣٤٤). وهذا الكلام في حدّ ذاته مثـالٌ كافٍ للتدليل على عدم قدرة بارد على التّمييز بين أوهامه وبين الواقع الدوليّ. ففي حين يعترف العالم كله بمهنيّة منظّمات الدفاع عن حقوق الإنسـان هذه وعدم تحيّزها، يرى بارد أنّها تشـكّل جزءًا من اللّوبي العربيّ السّـاعي إلى إفساد السّياسة في أميركا. فإسرائيل من هذا المنظور هي "الخير المطلق"، بحيث كلّ من ينتقدها "شرّير" ومتحيّز. ولذلـك ينتهي بارد إلى إدانة "المسـتعربين" في وزارة الخارجيّة الذين "يدفعـون أوباما إلى الضّغط على إسرائيل لتقـدِّم تنازلاتٍ عوضًا عن استعمال قوّته للضّغط على العرب حتى يقوموا بخطواتٍ نحو السلام" (ص ٣٤٩). فهو يعتقد إذن أنّ كلّ خطط السّلام العربيّة (والدوليّة) لا معنـى لها، طالما لم توافق عليها إسرائيل. وهو ينصح الإدارة الأميركيّة بالاعتراف بأنّ سـبب فشـلها لأكثر من سبعين سـنة يكمن في طريقة مقاربتها لهذا الأمر، إذ إنّ "المقاربة التي يمثّلها المسـتعربون والمدرسة الواقعيّة المزعومة تجاه الشّرق الأوسـط لم تخـدم المصالح الأميركيّة. فقد فقدت أميركا الاحترام داخل المنطقة وخارجها بسـبب مراضاتها للحكّام الأوتوقراطيّين الذين يعتدون على حقوق الإنسان" (ص ٣٥٣). وهـو ما يعني ضمنيًّـا أنّها لم تفقد الاحترام بسـبب موالاتها العمياء لإسرائيـل، على الرّغم من اعتداءات هذه الأخيرة المتكرّرة على حقوق الإنسان الفلسطينيّ.

إن كامل الكتاب مكتوبٌ على هـذا النّحو من المغالطات المبنيّة على سـوء النيّة، والتي يمكن دحضها واحدة واحدة بسهولة. ولعلّ الرّسالة الوحيدة التي ينقلها ميتشـال بارد من دون وعـي، هي مدى التأثير الذي أحدثه صاحبا كتاب **اللّوبي الإسرائيلي**، جون ميرشـيمر وستيفن والت، بعمق لـدى الإسرائيليّين، لأنّ كتابهما على الأقلّ يحمل الحجج العلميّة لاثنين من بين أهمّ الأكاديميّين الأميركيّين الذين تحدّوا بشجاعةٍ نـادرةٍ "قانون الصمـت" إسرائيليّ الصّنع في كلّ ما يتعلق بالسّياسـة الأميركيّة في الشّرق الأوسط.